دور التعليم الديني في الحفاظ على التراث الثقافي في ليبيا

الدكتور الصالحين الخفيفي

جامعة عمر المختار – ليبيا

بدأت هوية ليبيا الثقافية ـــ كبلد عربي إسلامي ـــ تتحدد منذ أن افتتحها المسلمون عام 642م، وكما هو معروف فقد ارتبط الفتح الإسلامي بإنشاء المؤسسات الدينية من مساجد ورباطات، نتج عنها تشكيل منارات علمية أنطلق منها شعاع الثقافة الإسلامية إلى سائر المجتمع، وقد لعبت هذه المنارات دورها في احتفاظ البلاد بهويتها العربية الإسلامية ووقفت حائلاً دون محاولات الاستلاب الثقافي، التي تعرضت لها البلاد من جراء تعرضها للغزو المسيحي، إضافة إلى أنها ظلت الوسيلة الوحيدة للحفاظ على التراث الثقافي في الوقت الذي سادت فيه الفوضى السياسية البلاد. وقد اختلفت هذه المنارات العلمية باختلاف موقعها، ففي الحواضر أخذت المساجد والمدارس الملحقة بها على عاتقها مهمة نشر العلم والثقافة الدينية في المجتمع الليبي، بينما قامت بهذا الدور في الثغور والدواخل الرباطات والزوايا.

فالمسجد لم يكن مجرد مكان للعبادة والصلاة، وإنما كان مدرسة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ففيه تُلْقَى الدروس الدينية، وهو علاوة على ذلك يعتبر ملتقى للمثقفين من الطلاب والأساتذة، وقد انتشرت المساجد في ليبيا منذ الفتح الإسلامي بشكل واضح، حتى لفتت نظر الرحالة الذين مروا بالبلاد، وهو ما أشار إليه التجاني عند زيارته للبلاد في القرن الرابع عشر الميلادي بقوله: " ... مساجد البلد لا تحصى كثرة، وهي تكاد تناهز الدور عدة"[1].

وبالرغم مما في هذا القول من مبالغة، إلا أنه يعطي إشارة واضحة على مدى الاهتمام بإقامة المساجد في هذه الرقعة من أراضي الدولة الإسلامية. ومن أشهر المساجد القديمة في ليبيا؛ مسجد عمرو بن العاص المعروف بجامع الناقة كما اشتهر في عهد الأغالبة الجامع الذي بني في القرن التاسع الميلادي، وصار أحد فروع جامع القيروان بتونس[2]. وفي ذات القرن اشتهر أيضاً مسجد أبي عبيدة عبد الحميد الجناوني الذي أتسع ليستوعب سبعين عالماً من أكابر علماء قرية جناون

---

1 – عبد الله بن محمد التجاني، رحلة التجاني، المطبعة الرسمية، (تونس، 1958)، ص. 254.

2 – عثمان الكعاك، محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر، معهد الدراسات العربية، (القاهرة، 1958)، ص. 116.

بجبل نفوسة في آن واحد[1]، كما أسس الفاطميون جامع طرابلس الأعظم، الذي بلغ أقصى شهرته في عهد الصنهاجيين، حيث اشتمل التعليم فيه على مختلف العلوم الإسلامية والعربية واصبح بذلك بمثابة جامعة ليبية قائمة بذاتها[2].

وقد أُلحقَت ببعض هذه المساجد الكتاتيب والمدارس الهادفة إلى تعليم مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن والحديث ومبادئ الشريعة الإسلامية، ويُعَدُّ جبل نفوسة مركزاً للعديد من هذه المدارس حيث أنشئت به منذ القرن الثامن الميلادي، عدة مدارس من بينها مدرسة عمرو بن يمكتن بقرية ايفاطمان. وفي القرن العاشر الميلادي اشتهرت بهذا الإقليم عدة مدارس من بينها؛ مدرسة أبي يحيى سليمان بن ماطوس، ومدرسة أبي هارون موسى بن يونس الجلالي ومدرسة أبي يحيى زكريا بن إبراهيم الباروني بالإضافة إلى مدرستي كل من: أبي عثمان سعد بن أبي يونس الطمزيني وأبي المنيب محمد بن يانس. وقد استمر نشاط بعض هذه المدارس منذ القرن الثامن وحتى القرن الثالث عشر الميلادي، بينما استمر البعض الآخر مصدر إشعاع علمي حتى القرن السادس عشر الميلادي[3].

وبالرغم من كثرة هذه المدارس وتعدد العلوم التي قدمتها لطلابها، إلا انها لم تبلغ من الشهرة ما بلغته المدرسة المنتصرية التي بناها الفقيه أبو محمد عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا بين عامي 1160 – 1162م في عهد الموحدين أثناء ولاية بني مطروح على طرابلس[4]. وقد أثنى التجاني على هذه المدرسة بقوله: "... وبداخل البلد مدارس كثيرة-أحسنها المدرسة المنتصرية التي كان بناؤها على يد الفقيه أبي محمد عبد الحميد بين أبي البركات بن أبي الدنيا ـــ رحمه الله

---

1 – أحمد مختار عمر، النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، ط. 1، دار الكتب، (بروت، 1971)، ص. 108.

2 – رأفت غنيمي الشيخ، تطور التعليم في ليبيا في العصور الحديثة، ط. 1، دار التنمية للنشر والتوزيع، (طرابلس، 1972)، ص. 62 – 63.

3 – المرجع نفسه، ص. 115 – 116.

4 – عندما ضعفت الدولة الصنهاجية في أفريقيا استقلت طرابلس بنفسها تحت زعامة بني مطروح 515هـ – 1121م، إلا أن رُجار حاكم صقلية استولى عليها 541 هـ ـــ 1146م، وولّى عليها رافع بن مطروح، وفي عام 553 هـ ـــ 1158م استقلت طرابلس عن صقلية وبايع ابن مطروح عبد المؤمن بن علي الموحدي، ولذا أقره عبد المؤمن على ولايتها حتى 568 هـ ـــ 1172م. بخصوص ذلك – راجع ؛المقدمة محمد بن خليل بن غلبون، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، ط. 2، مكتبة النور، (طرابلس، 1967)، المقدمة.

تعالي ـــ وذلك فيما بين سنة خمسة وخمسين إلى سنة ثمان وخمسين وهذه المدرسة من احسن المدارس وضعاً وأظرفها صنعاً" [1].

وبما أن رحلة التجاني التي زار فيها البلاد كانت في القرن الرابع عشر الميلادي، والمدرسة أسست في القرن الثاني عشر الميلادي، فلنا أن نتصور مدى أثرها الفكري إذ أنها استمرت إلى ما يزيد عن القرنين من الزمن تؤدي دورها وهي في أوج قمتها.

والجدير بالذكر أن التعليم في هذه المدارس لم يكن مقتصراً على الذكور فقط، بل أن هناك مدارس لتعليم البنات، منها مدرسة أمسين بجبل نفوسة، كما وجدت بذات الإقليم بعض المدارس المختلطة التي تتلقى فيها الفتاة دورسها الدينية إلى جانب الفتى، مثل مدرسة أبي محمد خصيب بن إبراهيم في قرية تمصمص، وقد درست بهذه المدرسة فتاة تدعى أم ماطوس وهي أول فتاة ليبية تتلقى تعليما في مدرسة للفتيان[2]. وبذلك فإن ليبيا شهدت خلال العصور الوسطى ما شهدته غيرها من البلدان الإسلامية من اهتمام بالمراكز التعليمية التي عملت على ترسيخ الطابع الإسلامي بما تقدمه لطلابها من تعاليم دينية، كما نلاحظ ارتباط أسماء كثير من المساجد والمدارس بأسماء الفقهاء مما يعطي مؤشراً على مجهودات هؤلاء المخلصين سواء في تأسيس هذه المنارات أو القيام بأعمالها.

وعندما حل العثمانيون بالبلاد في القرن السادس عشر الميلادي، وجدوا البلاد على شيء من الإرث الثقافي، وورث عهدهم الكثير من المراكز الدينية، ونتيجة للطابع الإسلامي الذي أتسم به العهد العثماني، فقد حذى الحكام العثمانيون حذو أسلافهم من أمراء المسلمين وأتقيائهم حيث تنافسوا في تأسيس الجوامع وما يتبعها من مدارس ودور كتب، فكان كثير من الأتقياء يشترون هذه الديار ويوقفونها على الكتاتيب والزوايا والمدارس والجوامع بقصد الانتفاع بها، ومن اشهر الجوامع التي أسسها هؤلاء الأمراء بطرابلس: جامع درغوت، وجامع مصطفى قرجي، وجامع أحمد باشا وجامع شائب العين[3].

---

*- يقابل هذا التاريخ بالتقويم الميلادي: 1160 – 1162.

1 - عبد الله بن محمد التجاني، المصدر السابق، ص. 251 – 252.

2 - أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص. 117.

3 - عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص. 124.

وقد أُلحقت بهذه المساجد العديد من المدارس التي كان لها شأن في نشر العلم من بينها مدرسة عثمان باشا التي أُسست بطرابلس عام 1654م، ومدرسة أحمد باشا التي أسسها أحمد باشا القره مانلي وألحقها بمسجده الذي بناه 1738م وكذلك مدرسة الكاتب التي أسست في عهد علي باشا القره مانللي عام 1769، ومدرسة قرجي التي أسسها مصطفى قرجي عام، 1834 ومدرسة ميزران التي أسسها مصطفى ميزران في الفترة نفسها تقريباً بشارع الزاوية بطرابلس. ورغم أن المنهج بهذه المدارس لم يكن موحداً إلا انه كان متقارباً حيث كان معتمداً على كتب التراث العربي الإسلامي التي تضم مناهجها القرآن الكريم، وعلوم التفسير، الحديث النبوي، الفقه، أصول علم الكلام، علم التصوف، الأدب العربي شعراً ونثراً، الحساب، الجبر العلوم الهندسية، المساحة، الفلك، علم المواريث وغيرها[1].

والجدير بالذكر أن كبار شيوخ المساجد كانوا يعقدون الحلقات الدراسية التي تطور منهجها التعليمي ليشمل إلى جانب حفظ القرآن علوماً أخرى كعلوم الحديث والفلك والمنطق وعلم الكلام واللغة. مما جعل الدراسة بهذه المراكز تشبه إلى حد كبير الدراسة بالأزهر من حيث العلوم التي تدرس فيها، والطريقة التي يتم بها تدريس تلك العلوم. ولذا فقد كان بعض الطلبة يلتحقون بالدراسة بالأزهر بمصر أو الزيتون بتونس عند استيفائهم للدروس المقررة بالحلقات التي يعقدها هؤلاء الشيوخ[2]. وقد قاد كثير من خريجي الأزهر والزيتونة الحركة الفكرية في ليبيا، وتتلمذت على أيديهم طائفة من المثقفين الذين تمكنوا من النهوض بالحياة الفكرية في البلاد، ويكفي أن نستدل على اهمية دور هؤلاء العلماء بالدور الذي قام به محمد كامل بن مصطفى الذي أتم تعليمه بالأزهر 1854م، وأسند إليه منصب الإفتاء بطرابلس 1893م، كما جلس للتدريس في معظم مدارس طرابلس، كمدرسة عثمان باشا وأحمد باشا ومصطفى قرجي، بالإضافة إلى تدريسه للغة العربية بالمدرسة الرشدية. وكان على اتصال بمشايخ الأزهر والزيتونة، فقد راسل كل من مفتي الديار المصرية العباس المهدي، وصديقه أحمد بن الخوجة مفتي تونس، في كل ما يشق عليه فهمه من مسائل الفتاوي. بالإضافة إلى ذلك كانت له جلسات ومحاورات مع كثير من أعلام عصره أثناء ترحاله، ففي تونس جالس العالم صالح البترسقي وناقش معه مسألة

---

1 – بخصوص هذه المدارس راجع؛ محمد الكوني بالحاج، التعليم في مدينة طرابلس الغرب في العهد العثماني 1835 – 1911، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، (طرابلس، 2000)، ص. 53 – 57.

2 – الصيد محمد أبو ديب، شاعر من ليبيا. أحمد أحمد قنابة، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1968)، ص. 23.

دخول الفرنسيين البلاد، وما آلت إليه أحوال المسلمين، وفي تركيا إلتقى بالعلامة أحمد فارس الشدياق وجرت بينهما بعض المجادلات اللغوية[1].

ويعتبر وجود محمد كامل بن مصطفى في طرابلس خلال نهايات القرن التاسع عشر الميلادي، عاملاً من عوامل النهضة التي أُتيحت للحواضر الليبية، فقد كان ذا عقل متفتح، وحيوية متدفقة، عمل على إحياء النظم القديمة، والنهوض بها والمقارنة بينها وبين روح العصر، وهذه المميزات شجعت الكثيرين على حضور مجلسه، فتتلمذ على يديه كثير من الطلاب ممن كان لهم أثر في الحياة الفكرية في ليبيا، ومن بين تلامذته التي توثقت صلته بهم: إبراهيم باكير، عبد الرحمن البوصيري، وأحمد الفقيه حسن. وهم من كبار علماء طرابلس وأُدبائها، حيث أقبل هؤلاء على العلم بشغف ونظروا إليه من زاوية جديدة، فتفتحت أمامهم أفق جديدة دفعتهم للتطلع إلى التطور أكثر، وأخرجتهم من النطاق المحدود الذي كان يحيط بهم[2].

وفي الوقت الذي قامت فيه المساجد والمدارس بدورها التعليمي في المدن والقرى، كانت هناك منارات أخرى تقوم بنفس الدور تقريباً في الثغور البحرية والبرية، وتمثلت هذه المنارات في الرباطات التي أنشأها المسلمون على أطراف الدولة الإسلامية، وأشهر الرباطات الليبية الرباط المسمى قصر طرابلس، الذي أسسه الوالي هرثمة بن أعين في القرن الثامن الميلادي. وانتشرت هذه الرباطات على طول الساحل الليبي من زوارة حتى الإسكندرية، وكانت بمثابة مدرسة يتلقى فيها الرجال والنساء صنوف التعليم الديني، كما أنها كانت داراً لنسخ الكتب والمصاحف وبجامع الحديث وكتب الفقه. واستمرت هذه المراكز في الاضطلاع بدورها حتى القرن الثاني عشر الميلادي، حيث حل الموحدون محل المرابطين في البلاد، وظهرت الزوايا الدينية لتحل محل الرباطات في القيام بدورها التثقيفي[3].

ومن الزوايا الليبية التي قامت بدور بارز في مجال نشر العلم والثقافة الإسلامية، زاوية أحمد الزروق بمصراته. وهي أقدم معهد ديني في ليبيا يقصده من أتم حفظ القرآن في الكتاتيب[4]. وقد

---

1 – علي مصطفى المصراتي، أعلام من طرابلس، مطبعة ماجي، (طرابلس، 1955)، ص. 174 – 177

2 –طه الحاجري، الحياة الأدبية في ليبيا (الشعر)، معهد الدراسات العربية، (القاهرة، 1962)، ص. 67 – 70

3 – عثمان الكعاك، المرجع السابق، ص. 117 – 122

4 – علي فهمي خشيم، أحمد الزروق والزروقية، دراسة حياة وفكر ومذهب وطريقة، ط. 2، المنشأة الشعبية للنشر، (طرابلس، 1980)، ص. 172 – 173.

حوت مكتبة زاوية الزروق كثيرا من المخطوطات في مختلف فروع المعرفة سواء تلك التي ألفها أحمد الزروق، أو ما استجلبه من البلدان التي زارها بالإضافة إلى مؤلفات علماء الزاوية والدارسين بها كأحمد بن غلبون والشيخ رمضان أبو تركية[1]. وفي بلدة زليطن أُنشئت زاوية عبد السلام الأسمر عام 1494م وجهزت بحجرات لسكن الطلاب الوافدين إليها من مناطق بعيدة، ونظراً لذيوع صيت هذه الزاوية وما تقوم به من نشاط تعليمي أُطلق عليها اسم المعهد الأسمري. وتلي هاتين الزاويتين في الشهرة عدة زوايا أخرى كزاويتي الجعراني والدوكالي بمسلاتة، وأبي جعفر بجترور والبازة بزليطن وطبقة بأرض الزنتان وزاوية السني بمزدة[2]. ويكمن الدور الذي قامت به هذه الزوايا، في كونها أنتجت عناصر ساهمت في المحافظة على الهوية العربية الإسلامية للبلاد في الوقت الذي تعرضت فيه لمحاولة الاستلاب الثقافي؛ فعلى سبيل المثال قام أحد طلبة زاوية الأسمر بزليطن وهو الشيخ محمد الصفراني بافتتاح بيته في بنغازي عام 1936، مدرسة للمثقفين والفقهاء ليتزودوا أكثر بعلوم الدين[3].

وفي عام 1843م أسس محمد بن علي السنوسي الزاوية البيضاء بالجبل الأخضر، لتكون بذلك اللبنة الأولى للحركة الإصلاحية التي ظهرت في ليبيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولم تلبث الزوايا السنوسية أن انتشرت في ليبيا حتى بلغ عددها تسع وثمانين زاوية، منها تسع وأربعون في إقليم برقة أشهرها زوايا البيضاء، بنغازي، القصرين، العزّيات، النجيلة، أوجلة، مسوس واللبه في جالو. أما في إقليم طرابلس فقد بلغ عددها ثماني عشرة زاوية أشهرها النـــزورات، الرجبان، بو مهدي، العمامرة، اورفلة وغيرها. وفي فزان بلغ عدد الزوايا السنوسية اثنتين وعشرين زاوية ممتدة من الجغبوب إلى غات ومن غدامس إلى الكفرة ومن اهمها سنوان

---

1 – عبد الله محمد الشريف، محمد احمد الطوير، دراسات في تاريخ المكتبات والوثائق والمخطوطات الليبيـــة، ط. 1، الدار الجماهيرية للنشر، (مصراته، 1987)، ص. 32 – 33.

2 – لمزيد من التفاصيل حول هذه الزوايا راجع؛ الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان الليبيـــة، ط. 1، مكتبـــة النور، (طرابلس، 1968)، ص. 150 وما بعدها.

3 – عمران المصري، مقابلة شفهية، (بنغازي، 23 ديسمبر 1999 ف) .

وغدامس ومزدة[1]. والزاوية كما يقول عنها الدجاني: " ... المركز التعليمي للقبيلة، ففيها المدرسة القرآنية، التي يتلقى فيها أطفال القبيلة العلم، والمسجد الذي تقام فيه الصلوات، وتُلْقى الدروس التي يحضرها أفراد القبيلة"[2].

وبذلك فإن الزاوية قامت بدور المؤسسة التعليمية، التي يتلقى فيها التلاميذ تعليمهم الديني، كما أنها تعد مصدراً إشعاع ثقافي من خلال ما تقدمه من محاضرات لكبار السن من أفراد القبيلة. وتختلف الزوايا في أهمية ما تقدمه لمريديها من علوم، فزاوية الجغبوب التي بناها مؤسس الحركة السنوسية عام 1856م واتخذها مركزاً لدعوته بدلاً من الزاوية البيضاء، هي أهم الزوايا السنوسية قاطبة. وهي بمثابة معهد أو مدرسة عليا تجاوز التعليم فيها حفظ القرآن إلى تدريس مختلف العلوم العقلية والنقلية. وقام بالتدريس في هذا المعهد كبار العلماء وحفظة القرآن، ولذا فقد أعدَّ طائفة لا بأس بها من العلماء والشعراء والقُرَّاء والكتاب، ويكفي دليلاً على شدة الاهتمام بتحفيظ القرآن أن المدرسة القرآنية بهذا المعهد خرّجت في إحدى السنوات ثمانين طالباً ينتمون لقبيلة واحدة، ومما لا شك فيه أن أعدادا مماثلة لهذا العدد جاءت لقراءة القرآن وحفظه عدا طلاب العلوم الدينية الأخرى[3].

ورغم أن مركز الدعوة تحول في عام 1894م إلى الكفرة، إلا أن معهد الجغبوب احتفظ بطابعه الديني ومكانته المعنوية، وظلت مكتبته التي ضمت كثيراً من المخطوطات والكتب المستجلبة من مصر والحجاز والشام والأستانة وتونس ومراكش والتي قدرها الحشائشي عند

---

1 – محمد فؤاد شكري ،السنوسية دين ودولة،دار الفكر العربي ،(القاهرة، 1948) ،ص، 62.

2 – أحمد صدقي الدجاني، الحركة السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر، دار لبنان، (بيروت، 1967)، ص. 239، 262 – 263.

3 – محمد الطيب الأشهب، السنوسي الكبير، مطبعة محمد عاطف، (القاهرة، 1965)، ص. 48.

زيارته للبلاد بحوالي ثمانية آلاف مجلد أدت دورها التثقيفي لكل الراغبين في الاستزادة من معينها[1].

وإذا كان الجو الديني هو الطابع الغالب على الأنشطة الثقافية لمعهد الجغبوب وغيره من الزوايا، إلا أن هذه المنارات لم تقف عند هذا الحد، بل تعدته إلى النواحي الأدبية الأخرى، حيث كانت تعقد ندوات شعرية تتناول كثيراً من صنوف الأدب بعيداً عن الطابع الديني الصرف[2].

وقد هيأ التعليم الديني في الزاويا السنوسية وغيرها من الزوايا عناصر ساهمت في النهوض بالحياة الثقافية في ليبيا، ومن أمثال هؤلاء الشيخ محمد الحبيب عز الدين، الذي حفظ القرآن في مقر إقامته بغدامس، ثم سافر إلى تونس ليتم تعليمه في جامع الزيتونة، حيث تحصّل على شهادة التطويع وهي أعلى الشهادات التي تمنحها هذه المؤسسة العلمية، ثم سافر إلى مصر واتصل بمشايخ الأزهر، وعندما عاد إلى بلاده احترف مهنة التدريس والتوجيه. وكان إلى جانب دروسه المستديمة بالمساجد، يعطي دروساً خاصة للمتفوقين من تلاميذه بمنزله، كما كان من هواة جمع الكتب، حيث حوت مكتبته العديد من المجلدات والمخطوطات[3].

كما درس الشيخ عبد الكريم عزوز بالأزهر، ونال شهادة العالمية بعد إتمامه لتعليمه الديني في الكتاتيب والزوايا، وعاد ليتولى القضاء بدرنة عام 1929، وقد تتلمذ على يدي هذا الشيخ الشاعر إبراهيم الاسطى عمر، وهو أحد قادة الحركة الفكرية في ليبيا في عهد الإدارة البريطانية. اما الشيخ عبد الجواد أفريطيس فقد عُيّن عقب عودته من الأزهر في العهد الإيطالي كاتباً بمحكمة درنة الشرعية ثم مدرساً ومحرراً لبعض الصحف. وإلى جانب هؤلاء هناك آخرون

---

1 - محمد بن عثمان الحشائشي التونسي، رحلة الحشائشي إلى ليبيا 1985، جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، ط. 1، دار لبنان، (بيروت، 1965)، ص. 151 — 152.

2 - محمد الطيب الأشهب، برقة العربية الأمس واليوم، مطبعة الهواري، (القاهرة، 1948)، ص. 569 وما بعدها.

3 - بشير قاسم يوشع، غدامس ملامح وصور، ط. 1، دار لبنان، (بيروت، 1973)، ص. 62 — 63.

كثيرون امثال الشيخ عبد الرحمن الدياني، الشيخ عبد القادر الحصادي، محمد خلوصي ومحمد سالم بن عمران وغيرهم ممن أخذوا على عاتقهم مهمة التعليم في مدينة درنة[1].

إن هذه النخبة المتقفة ما كانت تستطيع الالتحاق بدور العلم في البلدان المجاورة كالأزهر والزيتونة، وما كانت تقوم بدورها سواء في مجال التعليم أو شغل المناصب الإدارية، لولا وجود تعليم مبدئي منحته إياها الزوايا والكتاتيب الملحقة بها، ولذا فإن الدور الذي لعبته هذه المراكز الدينية يكمن في أنه كانت أساس التعليم في ليبيا في غياب المدارس الحديثة ذات الطابع الوطني.

إلا أن ما يؤخذ على التعليم بالمراكز الدينية في الدواخل خاصة في الزوايا السنوسية، أنها عملت على تكوين جدار سميك أصبح حائلاً بين القبائل البدوية والمؤثرات الخارجية، فرغم اتصال زعماء الحركة السنوسية بالبلاد الإسلامية ومعرفتهم بتأثر هذه البلدان بمظاهر الحضارة الأوربية، إلا انهم لم يحاولوا أن يطلعوا اتباعهم عليها، خاصة وأن هؤلاء الزعماء هم الوسيلة الوحيدة التي تربط هؤلاء الاتباع بالعالم الخارجي، باعتبار أن مركز هذه الحركة في البادية بعيداً عن التيارات التي عادة ما تؤثر في المناطق الساحلية، فلا يوجد بالبادية أثر يُذْكر لاتجاهات المفكرين الذين تدل مبادئهم على اتصالهم ببعض الاتجاهات الأوروبية، أمثال الوزير خير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني، رغم أن بلديهما أقرب البلدان إلى ليبيا، ومع أن مبادئ الأفغاني كانت مثار جدل بين زعماء السنوسية، إلا أنه لا يوجد لها أي أثر بين أتباعهم[2]. في حين أن ميثاق أول جمعية سرية تكونت في مدينة طرابلس عام 1883م يشير بوضوح إلى تأثر القوميين العرب في طرابلس بمبادئ واتجاهات كبار رواد النهضة العربية أمثال: جمال الدين الأفغاني، محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي، حيث جعلت هذه الجمعية من مهامها توحيد القوى الوطنية في وجه الخطر الأوروبي ،عن طريق إجراء إصلاحات شاملة تتناول مختلف جوانب الحياة للرفع من

---

1 – مصطفى عبد العزيز الطرابلسي، درنة الزاهرة، منشورات جامعة درنة، (درنة، 1999)، ص. 290 – 292

2 – طه الحاجري . المرجع السابق، ص 28 _ 29

مستوى الحياة الاقتصادي والثقافي، وذلك بنشر التعليم وتطوير قبائل الصحراء وسكان الدواخل في ولاية طرابلس[1].

وبالرغم من استجلاب كثير من المؤلفات من مختلف البلدان الإسلامية، وإيداعها في مكتبة الجغبوب إضافة إلى جلوس أساتذة من هذه البلدان للتعليم في الزوايا السنوسية. إلا أن ذلك لم يُحْدث أثراً في اتباع السنوسية والدليل على ذلك أن الشعر السنوسي اشتق معانيه واتجاهاته من البيئة التي نشأ فيها والروح التي كان يجسدها المتمثلة في المبادئ التي قامت عليها الحركة السنوسية[2].

وبذلك يتضح أن الحركة السنوسية قد فرضت العزلة على اتباعها حيث لم تحاول أن تخلق بينهم وبين التيارات الفكرية الحديثة أي اتصال، ولذا فإن الإيمان بالروح القيادية لزعماء الزوايا كانت عميقة، والولاء لهم كان مطلقاً، وقد اتضح ذلك خلال مرحلة الجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي. وبطبيعة الحال فإن هذه الصفة التي اتصفت بها الحركة كان لها تأثيرها على الحياة في ليبيا عقب الحرب العالمية الثانية بوجه عام، وعلى النواحي الثقافية فيها على وجه الخصوص. حيث نرى أن كثيراً من الاتجاهات السياسية التي ظهرت في تلك الفترة ذات اتجاه سنوسي صرف، كما أن كثيراً من الإنتاج الأدبي يشير إلى ذلك. فتأثر الحياة في ليبيا بهذه الحركة أنتج بعد الحرب العالمية الثانية تياراً فكرياً مستقلاً اصطدم بغيره من التيارات التي تكونت بفعل عوامل أخرى داخلية وخارجية، مما أوجد نوعاً من الجدل أثرى الحياة الفكرية في ليبيا، وكان كل ذلك نتيجة لتأثير السنوسية في اتباعها وحيلولتها دون وصول أي تأثير خارجي، حيث لم يثبت أن مراكز تعليمهم أعطت اهتماماً لأراء المصلحين والمفكرين الذين تزامن ظهورهم مع ظهور الحركة السنوسية أو سبقوها زمنياً، وعلى الأرجح أن هذا التقوقع من جانب السنوسية كان مقصوداً فالبادية الليبية لا تزال أرضاً خصبة لتقبل أي مؤثرات خارجية قد تتعارض والمبادئ التي

---

1 – نيكولاي ايليتش ابروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث منتصف القرن السادس عشر ـــ مطلع القرن العشرين، ترجمة عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، (طرابلس، 1991)، ص. 354 – 356.

2 – طه الحاجري المرجع السابق، ص. 62.

قامت عليها الحركة. ولذا عمد السنوسيون من خلال سياستهم هذه إلى تعميق مبادئهم بعيداً عن أي تأثير حتى تتأصل في نفوس اتباعهم مبادئ الإسلام وتتمكن منها، وبذلك يكونون على استعداد لتقبل أي مؤثر بعقلية متفتحة قادرة على تمحيص الأمور وتحليلها، ومن الأرجح أن هذا هو السبب الرئيسي الذي جعل الانغلاق طابعاً لازم الحركة السنوسية طوال الفترة الممتدة من نهاية القرن التاسع عشر إلى النصف الأول من القرن العشرين.

ومهما تكن الصبغة التي اصطبغت بها هذه الحركة، فإن لها مآثر لا يمكن إغفالها من بينها إنها أنتجت ـــ كما سبقت الإشارة ـــ تياراً فكرياً تعارض مع غيره من التيارات مما أثرى الحياة الفكرية في ليبيا. إلى جانب أن الشعر الذي ظل منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين وسيلة الأدب الوحيدة للتعبير عن الأماني والأهداف، هو امتداد للشعر السنوسي. كما أن الزوايا التي انتشرت في ليبيا بين عامي 1843 ـــ 1858م وضعت اللبنة الأولى في برامج تعليم الكبار في البادية الليبية. وقد أكد أحد خبراء اليونسكو هذا الرأي حيث أفاد بأن بدايات حركة تعليم الكبار في ليبيا لا يعود إلى عام 1951، حيث أعلن استقلال ليبيا ولا إلى عام 1953 عندما أُسس مشروع اليونسكو بفزان، بل يعود إلى عام 1843، عندما أُنشئت أول زاوية سنوسية بالبيضاء. وعندما وفد خبراء اليونسكو للعمل في ليبيا عام 1953، وجدوا تربة صالحة لمشروع تعليم الكبار[1].

فالمؤسسات الدينية لعبت دوراً هاماً في الحفاظ على ما أمكن من التراث الثقافي الليبي أكثر من كونها مركز إشعاع علمي ونهوض بالثقافة، وبالإطلاع على التاريخ الثقافي والعلمي للأحقاب السابقة تكفي نلاحظ بروز العديد من الرجال الذين أجادوا في جوانب مختلفة من الفكر والأدب، خاصة في مجالات العلوم الدينية واللغوية والآداب والتاريخ رغم حياة البؤس التي فرضتها الظروف السياسية والاقتصادية السيئة.

---

1 – جامعة محمد بن علي السنوسي، " محو الأمية وتعليم الكبار "، مؤتمر وزراء التربية والتعليم، (طرابلس، 1966)، ص. 4 – 5.